

تفسير البحر المحيط

@ 242 @ الكاهنان ، لأنهما من ولد الكاهن بن هارون ، نزلوا قريباً من المدينة في فتن بني إسرائيل ، انتظاراً لمحمد صلى الله عليه وسلم) ، فكان من أمرهم ما قصه الله تعالى في كتابه . { مِنْ دِيَارِهِمْ } : يتعلق بأخرج ، و { مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } يتعلق بمحذوف ، أي كائنين من أهل الكتاب . وصحت الإضافة إليهم لأنهم كانوا بيرية لا عمران فيها ، فبنوا فيها وأنشأوا . واللام في { لِأَوَّلِ الْحَشْرِ } تتعلق بأخرج ، وهي لام التوقيت ، كقوله : { لِدُلُوكِ الشَّامِ } ، والمعنى : عند أول الحشر ، والحشر : الجمع للتوجيه إلى ناحية مّا . والجمهور : إلى أن هؤلاء الذين أخرجوا هم بنو النضير . وقال الحسن : هم بنو قريظة ؛ ورد هذا بأن بني قريظة ما حشروا ولا أجلوا وإنما قتلوا ، وهذا الحشر هو بالنسبة لإخراج بني النضير . وقيل الحشر هو حشر رسول الله صلى الله عليه وسلم (الكتاب لقتالهم ، وهو أول حشر منه لهم ، وأول قتال قاتلهم . وأول يقتضي ثانياً ، فقيل : الأول حشرهم للجلاء ، والثاني حشر عمر لأهل خيبر وجلاؤهم . وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بجلاء أهل خيبر بقوله صلى الله عليه وسلم) : (لا يبقين دينان في جزيرة) . وقال الحسن : أراد حشر القيامة ، أي هذا أوله ، والقيام من القبور آخره . وقال عكرمة والزهري : المعنى : الأول موضع الحشر ، وهو الشام . وفي الحديث ، أنه عليه الصلاة والسلام قال لبني النضير : (اخرجوا) ، قالوا : إلى أين ؟ قال : (إلى أرض المحشر) . وقيل : الثاني نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وهذا الجلاء كان في ابتداء الإسلام ، وأما الآن فقد نسخ ، فلا بد من القتل والسبي أو ضرب الجزية . .

{ مَا طَعَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا } ، لعظم أمرهم ومنعتهم وقوتهم ووثاقة حصونهم وكثرة عددهم وعددهم . { وَطَعَنُوا أَنْ نَّهْهُمْ } تمنعهم حصونهم من حرب الله وبأسه . ولما كان ظن المؤمنين منفيًا هنا ، أجري مجرى نفي الرجاء والطمع ، فتسلط على أن الناصبة للفعل ، كما يتسلط الرجاء والطمع . ولما كان ظن اليهود قوياً جداً يكاد أن يلحق بالعلم تسلط على أن المشددة ، وهي التي يصحبها غالباً فعل التحقيق ، كعلمت وتحققت وأيقنت ، وحصونهم الوصم والميضة والسلاليم والكثيبة . وقال الزمخشري : فإن قلت : أي فرق بين قولك : وطنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم ، وبين النظم الذي جاء عليه ؟ قلت : في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم ، وفي تصيير ضميرهم اسماً لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم ، وليس ذلك في قولك : وطنوا أن حصونهم تمنعهم . انتهى ،

يعني أن حصونهم هو المبتدأ ، وما نعتهم الخبر ، ولا يتعين هذا ، بل الراجح أن يكون حصونهم فاعلة بما نعتهم ، لأن في توجيهه تقديمًا وتأخيرًا ، وفي إجازة مثله من نحو : قائم زيد ، على الابتداء ، والخبر خلاف ؛ ومذهب أهل الكوفة منعه . .

{ فَاتَّاهُمُ اللَّاهُ } : أي بأسه ، { مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا } : أي لم يكن في حسابهم ، وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف ، قاله السدي وأبو صالح وابن جريج ، وذلك مما أضعف قوتهم . { وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ * الرُّعْبَ } ، فسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة حتى نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، { يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ } ، قال قتادة : خرب المؤمنون من خارج ليدخلوا ، وخبروا هم من داخل ونحوه . قال الضحاك والزجاج وغيرهما : كانوا كلما خرب المسلمون من حصونهم ، هدموا هم من البيوت ، خربوا الحصن . وقال الزهري وغيره : كانوا ، لما أبيع لهم ما تستقل به الإبل ، لا يدعون خشبة حسنة ولا سارية إلا قلعوها وخبروا البيوت عنها ، فيكون قوله : { وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ } إسناد التخريب إليها من حيث كان المؤمنون محاصرتهم إياهم داعية إلى ذلك . وقيل : شحوا على بقائها سليمة ، فخبروها إفسادًا .

وقرأ قتادة والجحدري ومجاهد وأبو حيوة وعيسى وأبو عمر : ويخربون مشددًا ؛ وباقي السبعة مخففاً ، والقراءتان بمعنى واحد عدى خرب اللازم بالتضعيف وبالهمزة . وقال صاحب الكامل في القراءات : التشديد الاختيار على التكثر . وقال أبو عمرو بن العلاء : خرب بمعنى هدم وأفسد ،